٩٩/١/٣/٤٠

مكتبة الروضة الحيدرية
الرقم ٧٠٠١
التاريخ ٢٠١٢/١١/٢٢

الموقف الأدبي

مجلة أدبية شهرية يصدرها اتحاد الكتاب العرب بدمشق

العدد : ٢٩١ تموز ١٩٩٥ م صفر ١٤١٦ هـ

المدير المسؤول
علي عقلة عرسان

رئيس التحرير
محمد عمران

أمين التحرير
فايز خضّور

هيئة التحرير
د . نعيم اليافي
صميم الشريف
قمر كيلاني
د . قاسم المقداد
زكريا شريقي

المراسلات :
باسم رئاسة التحرير
اتحاد الكتاب العرب
دمشق ـ المزة اوتستراد
ص.ب: ٣٢٣٠
هاتف : ٢١٢٤٢٩٩
٢١٢٤٣٢٩
٢١٢٤٥٦٩

- المواد التي ترد الى المجلة ، لا تعاد الى السادة أصحابها ، سواء نشرت أم لم تنشر .
- المواد التي تنشر ، تعبّر عن آراء كُتّابها . ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة .
- ترتيب المواد يخضع لضرورات فنية وطباعية .

قراءة نفسية في الفكر الإستشراقي

□ د. محمد أحمد النابلسي *

ان كل خلية من خلايا الجسم البشري تحمل في طياتها برنامجاً وراثياً معقداً هو بمنزلة التراث البيولوجي ـ الوراثي للشخص صاحب الخلية . من هنا كان اهتمام الاطباء بمعرفة العوالم الوراثية المؤثرة في صحة مرضاهم . بل بعض الاطباء النفسيين يصرون على تحديد " شجرة العائلة الوراثية " لمريضهم . وفي طليعة هؤلاء العالم المجري ليوبولد سوندي الذي يبني نظريته على أساس هذا التحديد . ويتضح لنا مدى تجاهل الإنسان لتراثه وجهله له من خلال اختبار يتمثل بسؤال واحد هو التالي : " كم تعتقد يبلغ عدد اسلافك خلال ٢٠ جيلا ؟ "

لقد طبقنا هذا الاختبار في بيئتنا العربية فحصلنا على تخمينات تراوحت بين أربعين سلفا ومئتي سلف . في حين ان الجواب الحقيقي هو مليون سلف . بل ان عدد الاسلاف يصل إلى مليار سلف خلال ثلاثين جيلا . هذا إذا وافقنا على اعتبار عائلات الاسلاف عائلات صغيرة العدد . وهو اعتبار في غير مكانه في بيئتنا العربية.

ان هذا العدد الهائل من الأسلاف لا بد له من ان يتضمن قديسين ومجرمين ، عقلاء ومجانين ، شرفاء ومنحرفين وغيرها من التناقضات التي تجعلنا قادرين على نسبة الشخص إلى قديسين عقلاء وشرفاء . كما تجعلنا قادرين على نسبة الشخص نفسه إلى مجرمين مجانين ومنحرفين . ففي خلال جيلين لا أكثر نجد في كل عائلة بطلا يقابله مجنونا وقديسا يقابله منحرفا . وكلهم يملكون نفس الخريطة أو البرنامج الوراثي أو الذاكرة الوراثية .

إلى جانب هذه الذاكرة الوراثية يملك الشخص ذاكرة النوع البشري التي أتاحت للحيمن افراز المادة التي ساعدته على اختراق البويضة لتبدأ حياته

* أستاذ الطب النفسي ، رئيس مركز الدامات النفسية

الجنينية ومعها ذاكرته الجنينية (يسمع الجنين الأصوات ويمص اصبعه ويكون مجموعه من الارتكاسات ويحتفظ بها في ذاكرته البدائية لكي يواجه بها حياته المقبلة خارج رحم أمه) ثم تبدأ ذاكرته الرضاعية لدى شعوره بالاختناق فور خروجه إلى النور . فيصرخ صرخة الولادة ليدخل الهواء إلى رئتيه للمرة الأولى وليعاني اولى تجارب قلق الوجود الذي سيصاحبه طيلة حياته ولكنه سيعجز عن استحضار المعلومات المختزنة في ذاكرته لغاية بلوغه سن الثلاث سنوات حين تبدأ اللغة بالتكامل في ادراكه . فلو طلبنا من أي شخص العودة إلى أعماق ذاكرته ومحاولة تذكر أقدم حدث يمكنه أن يتذكره فاننا سنجده يقف على مشارف السنة الثالثة من عمره . ولعله من المدهش ان ذكريات تلك الفترة المبكرة من العمر تأتي متناسقة ومنسجمة مع شخصيته الراهنة . وكأن نواة الشخصية قد تكونت في هذا العمر . حتى نشأ تيار نفسي يدعو إلى دراسة الشخصية من خلال أقدم الذكريات التي تستطيع استحضارها . لكن ذاكرة الإنسان لا تواصل تطورها المنتظم منذ سن الثالثة بل هي تتعرض لنسيانات عديدة في الفترة العمرية الممتدة من ٥ ـ ٨ سنوات (وهذا ما يدعوه فرويد بفقدان الذاكرة الطفولي وهو قابل للاسترجاع) .

وتبدأ ذاكرة الشخص بالمعنى المألوف لتسجل تجاربه الحياتية وتفاعله مع محيطه بالسلب وبالايجاب . فتتكون الذكريات بمعناها التقليدي وبأثر ذاكرة النوع يميل الشخص لاستحضار ذكرياته الايجابية ولنسيان وكبت السلبية منها . هذا ويتفق كافة علماء النفس على أن مواجهة الشخص بذكرياته السلبية هو نوع من أنواع الوحشية (يدعوه فرويد مثلا بالتحليل الوحشي) فالشخص لا يتحمل هذه المواجهة الا إذا وضع الامور في سياقها الذي يبرر حدوثها . أما العالم بيار مارتي فانه يعتبران ان اللاوعي (ذلك الجزء المكبوت من الذاكرة) هو معادل لحقل الالغام وانه ليس من مصلحة المتعالج أن يجول معالجه بين هذه الألغام فيفجرها له دون واع ودون ضرورة . من هنا يدعو مارتي لاقتصار تركيز المعالج على مساعدة المتعالج على تفكيك الالغام فقط في المنطقة المتعلقة باضطرابه من لاوعيه .

ويبقى السؤال كيف يكوّن الإنسان مفهومه للآخر ؟ ان الرضيع يكتشف في سن معدله ٥ أشهر ان قدمه تنتمي إلى جسده . ويتم هذا الاكتشاف أثر حركة عشوائية تصطدم من خلالها يده بقدمه . وكم يسعد الرضيع بهذا الاكتشاف فيقضي اوقاتٍ طويلة يتمتع باللعب بأصابع قدمه . ثم يمضي لاكتشاف بقية جسمه تدريجياً . فإذا ما تم هذا الاكتشاف أدرك أن جسد أمه لا ينتمي إليه وإن أمه هي شيء آخر بالنسبة له وبهذا يبدأ الطفل

■ ان الرضيع يكتشف في سن معدله ٥ أشهر ان قدمه تنتمي إلى جسده . ويتم هذا الاكتشاف أثر حركة عشوائية تصطدم من خلالها يده بقدمه .

بتكوين مفهوم " الآخر " ويكون ذلك أيضاً في حدود الثلاث سنوات من عمره .

على هذه الأسس يمكننا القول بأن لكلّ شخص عدة خيارات قدرية . فقدره مؤلف من مجموعة الخيارات المعيشية المتاحة له والتي تحددها شروط وراثته وظروف حياته . ان هذا التعريف يجمع بين الجبرية وبين الإختيارية . إذ نلاحظ من جهة إن لا خيار للإنسان في تحديد خياراته المعيشية . الا أنه من جهة اخرى حر في انتقاء واحد من الخيارات المتاحة له . انطلاقاً من اعتبار أن الشخص يحمل في طياته الوراثية خيارات محددة لا يكون مجبراً في معايشتها جميعا فهو قادر على الإنتقاء من بينها . فإذا ما أساء هذا الإختيار أمكن للعلاج النفسي مساعدته . هكذا فانٍ تعرفنا إلى التراث الفردي للشخص يجعلنا قادرين على مساعدته ولكن أيضاً على تدميره بوحشية . فلنتخيل ماذا يكون مصير هذا الشخص إذا ما اخرجنا له فضائح أسرته وعرفناه على أسلافه المنحرفين والفاسدين متجاهلين أسلافه الصالحين والشرفاء . ثم عدنا فنقبنا في ماضيه الشخصي فواجهناه بكل مكبوتاته السلبية دفعة واحدة . ثم اوحينا له بانتقاء اسوأ خياراته ؟ المعيشية ؟

ان هذا الاسلوب معتمد في علم النفس السياسي . بل انٍ تطبيقه يتخطى الافراد إلى مجتمعاتهم وإلى الأمة التي ينتمون اليها . وهذا تحديداً هو ما فعلته الحركة الإستشراقية بالأمة العربية وبتراثها.

■ ان التراث العربي هو الذاكرة اللغوية للأمة العربية . لكن تراث الأمة لا يكتمل الا بدراستها دراسة انتروبولوجية اجتماعية معمقة .

١ - في الإستشراق :

ان التراث العربي هو الذاكرة اللغوية للأمة العربية . لكن تراث الأمة لا يكتمل الا بدراستها دراسة انتروبولوجية اجتماعية معمقة . لذا اكتفى المشروع الإستشراقي بدراسة التراث العربي المدون وهوٍ اختصار ينطوي على الكثير من احتمالات الشطط وسوء التفسير . خصوصاً لجهة نسبة هذا التراث إلى الأمة ولغتها ليكون عربياً أم نسبته إلى الدين فيكون اسلامياً.

ولو نحن أمعنا النظر لوجدنا أن فترة الذروة الإستشراقية قد تزامنت مع وقفة غورو (قائد الجيش الفرنسي) أمام قبر صلاح الدين الايوبي وهتافه : " ها نحن يا صلاح الدين قد عدنا فانهض من قبرك وحاربنا " . فهلا عدنا سبعة قرون إلى الوراء من تاريخه لنرى كيف تعامل صلاح الدين مع القواد الصليبيين بأسلوب شهم وفروسي بعيد عن انتهاك حرمة الاموات بسبعة قرون من الرقي بعد وقفة غورو.

إن هذه الرغبة المحمومة في الانتقام تجمع بين هذا القائد وبين معاصريه من المستشرقين . فهم يعتبرون فشل مشروع الحروب الصليبية بمنزلة الظلم الذي يستدعي الانتقام . فإذا ما تم لهم استعمار المنطقة ترسخت لديهم مشاعر الإضطهاد المرضية . لذلك اعتمدت استراتيجيتهم في تلك الفترة مبدأ المزج بين الإستشراق وبين التبشير . لتضاف لاحقاً إلى هذه الاستراتيجية مظاهر التسلط السياسي والإقتصادي ومن ثم تفجير كافة ألغام الصراعات التاريخية المكبوتة (الاقليات والدينيات والمذهبيات ... الخ .

انطلاقاً من هذه المعطيات لم يعد بالإمكان النظر إلى الإستشراق كمشروع دراسي ينضوي على بعض الإنسانية وعلى القليل الأقل من الموضوعية . فرغبة الإنتقام تجعل الإستشراق عاجزاً عن الإنطلاق من الوقائع مروراً بالتحليلات وصولاً إلى النتائج . فالمشروع الإستشراقي كان مشروعاً جاهز النتائج ومحضراً للحلول الجاهزة بما يجعله محتاجاً إلى سوء تفسير الوقائع وتحوير التحليلات وصولاً إلى نتائج مجهزة ومقولبة مسبقاً لتسويق الحلول التي لا تخرج عن فرض أسوأ الخيارات المعيشية المتاحة لأمتنا .

وطرحنا هذا ليس تهمة نلقيها جذافاً بل هو طرح موضوعي تدعمه حقائق ثابتة (يعترف بها بعض المتنورين الغربيين الذين سنسرد موجزاً لآرائهم لاحقاً) أبرزها التالية :

١ ـ ان الإستشراق هو مشروع متكامل محدد المنطلقات والغايات . وبالتالي فإن أياً من المستشرقين لم يتعامل مع تراثنا تعاملاً فردياً (وإلاّ كنا على استعداد لاحترام آرائه مهما اختلفنا معها) وإنما كان هذا التعامل داخلاً في إطار مشروع كلي .

٢ ـ كما قدمنا فقد كان الإستشراق فعلا انتقاميا بما يفقده صفات الموضوعية والحياد العلمي والقدرة على احترام النتائج الحقيقية.

٣ ـ يتعامل الإستشراق مع الاحداث التاريخية من خلال تجزيئه لها ومن خلال عدم احترامه مبدأ السياق الزمني للحدث (العودة إلى الزمن التاريخي). وبهذا فان الإستشراق يرتكب مخالفة مزدوجة للمنطق . فالحقيقة الكاملة تختلف عن أجزائها (خصوصا إذا كان ادراك هذه الأجزاء انتقائي بصورة سلبية خبيثة) وهي ليست مطلقة كي نهمل عوامل الزمان والمكان في تعاملنا معها . كما يرتكب الإستشراق من خلال هذا التعامل ، خطيئة التحليل الوحشي لتراث الأمة (وهي خطيئة جرمية على صعيد الافراد فما بالنا على صعيد الامم ؟

■ كما قدمنا فقد كان الإستشراق فعلا انتقاميا بما يفقده صفات الموضوعية والحياد العلمي والقدرة على احترام النتائج الحقيقية.

٤ ـ يضع التبشير لنفسه هدف التعاطي مع الدين الاسلامي على أنه أسطورة شعبية ومع المعتقدات الاسلامية على أنها منقولة عن اليهودية والمسيحية . وهو بذلك لا يلغي الآخر كشخص وانما يحاول الغاءه كعقيدة . وفي هذا الموقف انتقام سادي قد يكون من حق القوي على الضعيف ولكنه حتما لا يندرج في خانة الموضوعية التي يحاول المستشرقون ادعاءها.

٥ ـ بقيت اللغة العربية والفكر اللغوي العربي عقبات كأداء في وجه المشاريع الإستشراقية . فاضطر الإستشراق للتعرض لهما فكانت محاولات تعطيل اللغة العربية باعتبارها سبباً رئيسيا لتخلف الناطقين بها . ومن ثم محاولات إبدالها باللهجات المحلية والعامية . وأيضاً محاولات اختراق فكرها وحرفها بدعوات إلغاء التشكيل وكتابتها بالحروف اللاتينية وتشجيع اللغات المكتوبة بالحرف العربي للتخلي عن هذا الحرف ... الخ من محاولات استهداف اللغة ومحاولات اغتيالها ككائن حي يلعب دور الوالدة بالنسبة للامة.

٦ ـ العمل على تجسيد اهداف الإستشراق من خلال خلق التيارات والمؤسسات التي تحتضن هذه الاهداف وتؤمن استمراريتها وتفاقمها وصولا لارصان مقدمات استعمارية اعمق وارسخ . تتوافق على هدف نهائي هو اغتيال ثقافتنا .

■ بقيت اللغة العربية والفكر اللغوي العربي عقبات كأداء في وجه المشاريع الإستشراقية .

فكم كان لهذه المشاريع من تأثير على فكرنا العربي المعاصر ؟ وإلى أي مدى نجحت في تحقيق غاياتها ؟ وما هي تطوراتها واخطارها الآنية والمستقبلية؟ ... الخ كلها اسئلة واشكاليات تحتاج للمناقشة .

٢ ـ الإستشراق يفجر الالغام التراثية :

قلنا ان اللاوعي مزروع بالألغام وان تفجير هذه الألغام هو إساءة بالغة واعتداء وحشي ودفع نحو اسوأ الخيارات . فللأمة كما للأشخاص ، لا وعيها الجمعي الذي يؤثر مباشرة في وعيها وسلوكها . فإذا ما تعرض الوعي إلى أزمات راهنة ومرهقة فانه يلجأ إلى الحيل الدفاعية للحفاظ على توازنه وعلى ذاتيته . في مقدمة هذه الحيل تأتي حيلة : النكوص ـ التثبيت . بحيث تلجأ الذات إلى ماضيها بحثاً عن الأزمنة الماضية التي حصلت خلالها هذه الذات على توازن واستقرار كافيين لترسيخ هويتها وتأكيد ذاتيتها . فإذا ما حددت الذات هذه المحطات ثبتتها في ذاكرتها ولجأت اليها وقت الازمات . لكن هذه

التثبيتات لا تكون دائما مأمونة . فهذا التوغل في الماضي يمكنه ان يفجر لدى الذات الغام الصراعات المكبوتة فتتحول هذه إلى راهنة . من هنا كان وجوب الحذر والتحكم في هذه العمليات . وقد يحصل ان يتدخل آخر ويستعرض ويدرس ويراقب ماضي الذات ولا وعيها . فإذا كان هذا الآخر انسانيا وموضوعيا فان بامكانه قيادة نكوص الذات في الطريق الآمنة . اما إذا كان هذا الآخر وحشيا (أو جاهلا) فانه يقود الذات إلى تفجير الغامها اللاواعية وإلى ترهين صراعاتها . بما يفقد الذات احتمالات القدرة على استعادة توازنها الذاتي ومعاودة تنظيم نفسها بنفسها . فتتحول هذه الذات نحو التفكك والتفتت وفقدان الهوية .

وإذا كان التراث المدون هو ماضي الأمة فان لا وعيها هو مزيج من لغتها وصراعاتها الداخلية ورغباتها ونزواتها وطموحاتها وفطرتها ومعتقداتها. وجاء الإستشراق لينقب في ماضي الذات العربية ولينسف تراثها بشتى الطرق التي من شأنها ان تعيق أي نكوص مأمون ويحول جميع نكوصات الذات العربية إلى غير مأمونة وبالتالي إلى ألغام من شأنها تفجير جميع الصراعات الداخلية المكتوبة في الذات العربية . مع الاصرار على تحويلها إلى صراعات متجددة راهنا ومعيشة . ولذلك باستخدام مجموعة اساليب منها :

■ وإذا كان التراث المدون هو ماضي الأمة فان لا وعيها هو مزيج من لغتها وصراعاتها الداخلية ورغباتها ونزواتها وطموحاتها وفطرتها ومعتقداتها.

أ ـ تزوير النصوص : ويتم هذا التزوير بصور وأساليب متعددة منها:

ـ ترجمة نصوص عربية إلى اللاتينية وانتحال مترجميها صفة المؤلفين . ثم تأكيد المستشرقين الجدد لهذا الانتحال أو محاولة فصلهم الاصل عن الترجمة.

ـ تحوير النصوص : على غرار تحريف رسالة ابن ميمون ونشرها على شكل رواية باللغة الفرنسية . وقد بلغ هذا التحوير حدود تحويل هذه الرسالة إلى إدانة الحضارة العربية والتنكر لتسامحها مع غير المسلمين.

ـ اخفاء بعض النصوص بعد سرقتها . ولا حاجة بنا هنا للتذكير بأن غالبية مخطوطاتنا التراثية موجودة في مكتبات أجنبية .

ب ـ سرقة المخطوطات والآثار عموما وتهريبها إلى الخارج .

ج ـ ابراز النصوص التي تعيد احياء الفتن والتناقضات : مثال ذلك الاهتمام باخراج وتحقيق ونشر المخطوطات التي تعيد ترهين الصراعات الداخلية المكبوتة في الذات العربية . وتحديدا نعطي مثال مناقشة بروكلمان لحادثة صفين وهي مناقشة اعتمدت مرجعا انتقائيا يخدم الأهداف المسبقة للمؤلف.

د ـ طمس الإنجازات الحضارية العربية : يكاد المستشرقون الإجماع على إنكار اية إضافة فكرية أو علمية للحضارة العربية . فالفكر العربي منقول برأيهم عن اليونان . وهم وهم ينكرون فضل العرب في إرساء المنهاج التجريبي في العلوم واضافاتهم الفلسفية والفلسفية ـ اللغوية إلى التراث الانساني . وهم لم يعترفوا إلا مؤخرا بأسبقية ابن النفيس في اكتشاف الدورة الدموية . وهم إذا ما وجدوا انهم مضطرون للإعتراف بانجاز عربي ما فانهم يعودون ليركزوا بالحاح على الصفات التي تبعد صاحب الإنجاز عن عمليات النكوص ـ التثبيت المأمونة . فيجدوه اما ذي اصول غير عربية واما مشكوك باخلاقه أو بانتمائه الديني والمذهبي إذا اقتضى الأمر . وكأن التنقيب في هذه المواضيع أهم من الإنجاز نفسه.

هـ ـ آحادية الاحكام : ينطلق الإستشراق من مبدأ الدراسة وحيدة الاتجاه . فالحوار مع الآخر مرفوض . فهذا الآخر مجبر للتعامل مع هؤلاء الدارسين وفق المقاييس التي يحددونها هم . والتي تعتبر قيمهم مقدسة غير قابلة للنقاش وكل ما يعارضها من قيم الآخر هو في حكم الشذوذ .

و ـ تشجيع اللبس في تفسير الصراعات الداخلية للذات العربية .

ز ـ انكار النصوص والمعطيات التي يمكنها أن تدعم الذات العربية وتساهم في دعم توازنها . وصولاً إلى اعتبار التعاليم الاسلامية بمنزلة الوضعية. كمقدمة لانكار التراث كله واعتباره عاجزا عن الصمود في الزمان . وهو اعتبار يشكل خطوة على طريق نسف اي محاولة تكامل بين التراث وبين الحداثة .

لكن النكوص (العودة إلى التراث) ليس بالحيلة العقلية ـ الدفاعية الوحيدة . إذ تملك الذات وسائل دفاعية اخرى للحفاظ على هويتها عن طريق استعادة توازنها واعادة تنظيمها . وعندما تأكد لاصحاب هذه المشاريع فعالية هذه القدرات الدفاعية (البديلة للنكوص) لجأوا إلى العبث بلا وعي الأمة وبعناصر توازنه بما يؤثر على استقرار الذات وتوازنها .

■ ان وعي الأمة يتخطى تراثها المدون إلى مجموعة العناصر المكونة للعقل العربي وهي نفسها العناصر التي كانت وراء انتاج تراثها الحضاري .

٣ ـ العبث بلا وعي الذات العربية :

قلنا ان وعي الأمة يتخطى تراثها المدون إلى مجموعة العناصر المكونة للعقل العربي وهي نفسها العناصر التي كانت وراء انتاج تراثها الحضاري . من هنا فان تشويه التراث لا يكفي وحده لتشويه هذه العناصر ولدفع الذات العربية نحو الشك بعقلها . من هنا كان التركيز على العناصر التالية:

أ ـ اللغة العربية : هذه اللغة التي مثلت أداة صنع الحضارة العربية وقناة تكريسها تاريخيا . بل ان هذه اللغة لا تزال محافظةً على شبابها وحيويتها وأصالتها عبر تاريخها الطويل . لذلك كان العمل جاداً لاقرار خطط مدروسة لتشويهها وربطها بالتخلف العربي الراهن بهدف تحويل هذه اللغة إلى مجرد فولكلور .

ب ـ الصراعات الداخلية : ان الدراسة التاريخية المفصلة للتراث العربي تتيح للدارسين التعرف إلى نواة الصراعات الداخلية للذات العربية وإلى آثار هذه الصراعات في تفكيك الذات العربية . مما يجعل من السهل اعادة تفجير هذه العلائم التفككية ـ الفصامية عن طريق اثارة مشاكل الاقليات (الطائفية والمذهبية والعرقية والقبلية) في العالم العربي.

ج ـ التعويضات المستحيلة : تعتبر الرغبة من الدوافع الرئيسية الموجهة لسلوك الذات والمساعدة على تحقيقها لتوازنها . فانجاز الرغبة يشكل كفاية للذات . من هنا فان المشاريع الاستعمارية تغذي كافة الرغبات العربية غير القابلة للتحقيق وتستخدم هذه الرغبات المضخمة لكبت ومحو الرغبات الموضوعية القابلة للانجاز والتحقيق واعادة الثقة للذات العربية تاليا.

د ـ النزوات الفردية : النزوة الجماعية هي تعريفا نزوة متسامية الأمر الذي يعقد استغلالها ويجعله صعبا . وكلما تجزأت هذه النزوة تدنى موقعها في سلم التساميات . ومن هنا تشجيع النزوات الفردية ، من قبل الاستعماريين ، ودعمها بهدف استغلالها في الاوقات المناسبة.

هـ ـ الاحباطات : على ضوء الوقائع المعروضة أعلاه تأخذ الطموحات طابع التعويض . وكلما زادت الإحباطات كلما بعدت الطموحات عن الواقعية . وهكذا فإن إفراغ الطموحات من موضوعيتها يمر بتعريض الذات للاحباطات المتكررة .

و ـ المعتقدات : وهي الاصعب منالاً لأنها تظل فاعلة في تحقيق توازن الذات (لانها تساعدها على مواجهة قلق الوجود ومخاوف ما بعد الموت) حتى بعد إعاقة وتعطيل العوامل الاخرى . فإذا ما حدثت هذه الإعاقة اضطرت الذات للاعتماد كليا على معتقداتها . مع ما يستتبعه هذا الاعتماد من خضوع كلي ـ نكوصي لهذه المعتقدات التي تصبح ممثلة وحيدة لهوية الذات . حتى يصبح النكوص الديني دلالة على إفراغ اللاوعي من عناصر دفاعه وعلى رغبة الذات في العودة إلى الصفر (ZERO) هذه العودة التي يشرحها التحليل بانها معادلة للرغبة في الموت . لكنها تتجلى بالقول : " ليتني لم اولد " عوضا عن القول : " ليتني اموت. "

■ ان هذه اللغة لا تزال محافظة على شبابها وحيويتها وأصالتها عبر تاريخها الطويل .

٤ - في مواجهة الإستشراق :

رأينا ان مشاريع الإستشراق تتمتع بدعم المؤسسات التي وضعتها وتتداخل مع المنظومات الفكرية ـ الاستعمارية لتكون مصدرا من المصادر الهامة لمعلوماتها ولرسم المستقبليات وتحديد امكانية التدخل في توجيه هذه المستقبليات . فإذا ما راجعنا مجمل المشاريع المستقبلية ـ الاستعمارية وجدنا فيها اثر المعلوماتية الإستشراقية.

في المقابل نجد ان مهمة مواجهة هذه المشاريع ملقاة على عاتق افراد فكيف يستطيع انسان فرد ـ عربي ، بظروفه المعلومة ، مواجهة مثل هذه المشاريع ؟

الواقع المؤسف يدلنا على عجز هؤلاء الافراد عن المواجهة . فإذا ما تفحصنا في مكتبتنا العربية وجدنا مجموعة محاولات نقدية للاستشراق . لكننا لا نجد مواجهة نظرية منظمة واحدة للتصدي لهذا الموضوع . فإذا ما راجعنا هذه المحاولات الفردية وجدناها مشتركة في بعض الهفوات والنواقص ومنها:

ا ـ يعمد الناقد إلى اعتماد الموقف الدفاعي وكأنه يقبل التهمة ، أو مجموعة التهم ، التي يوجهها الإستشراق دون مناقشة . حتى يبدو هذا الموقف وكأنه اعتراف ضمني بالاتهام . ويزداد هذا الموقف تعقيدا عندما تتعلق التهمة بالنواحي الدينية . حيث يصبح الموقف الدفاعي تهمة بحد ذاته . فالقضية الايمانية لاتناقش الا في اطار المناظرات الدينية بين الاطراف المعنية . وهي مناظرات خارجة ، في جميع الاحوال ، عن اختصاص الإستشراق .

ب ـ يعمد بعض النقاد إلى المواربة المكشوفة . فيعتمدون في ردهم على المستشرق على مراجع غير تلك التي استند اليها وهذه المواربة توحي للمحايد بانها هروب وتهرب من مواجهة الحقائق . مثال ان غالبية منتقدي بروكلمان قد اعتمدوا هذا التهرب في ردهم على طرحه لحادثة " صفين " . فهو قد اعتمد مرجعا له كتاب " الملل والنحل " للشهر ستاني . فلما ردوا عليه اعتمدوا مراجع اخرى وتجاهلوا مرجعه . حتى بدوا عاجزين عن دفع تهمته القائلة بفقدان العرب للمقومات الحضارية (بسبب حادثة صفين كنموذج .)

في رأينا الشخصي أن الرد على هذه التهمة لا يتم بتجاهلها أو بتجاهل مراجعها ولا بالانطلاق للدفاع عنها وإنما يأتي الرد باعتبار هذه الحادثة من الحوادث طبيعية الحدوث كنوع من أنواع اللامعارضة لدى الذات . فهل يمكننا اعتبار الحوادث التالية لقيام الثورة الفرنسية دليلا على فقدان الفرنسيين

■ ان مشاريع الإستشراق تتمتع بدعم المؤسسات التي وضعتها وتتداخل مع المنظومات الفكرية ـ الاستعمارية لتكون مصدرا من المصادر الهامة لمعلوماتها .

للمقومات الحضارية ؟ أم نعتبرحوادث ايرلندا دليلا على مثل هذا الفقدان ؟ ونسأل عن الفوارق بين هذه الحادثة وبين حروب السبعين سنة والاهليات اليونانية والاسبانية بل نتساءل عن حوادث لوس انجلوس وما تشير اليه من فقدان حقيقي لمقومات التكامل الحضاري ؟.

ج - يتبدى لنا الإستشراق كأب حقيقي للمشاريع الاستعمارية في عالمنا العربي . ولقد تبدت هذه الأبوة واضحة من خلال فيلبي ولورانس العرب . كما تبدت حديثاً من خلال الاهتمام بالاقليات لدرجة الدعوة لاقامة مؤتمرات تُفجر تناقضاتها بصورة صدمية عوضاً عن مناقشتها في إطارها الزمني والإنساني بصورة هادئة بعيدة عن استثارة مشاعر العداء والباسها الثوب التاريخي . ولعل فتيل أزمة الأقليات المصطنعة قد بدأ اشتعاله مع وعد بلفور . فلو نظر المستشرقون في تراثنا بصورة موضوعية لرأوا أن الحضارة العربية خلقت مناخاً تعايشياً ، مع اليهود خصوصاً ، لم تتمكن المجتمعات الغربية من بلوغه حتى الآن . دون ان يعني هذا التعايش السماح للاقليات بتنفيذ مشاريع استعمارية تمزق الجسد والذات العربيين.

إن الفردية المميزة لنقد الإستشراق وعدم تأطير هذا النقد يؤديان إلى عدم تفرغ النقاد وتصديهم للنقد بأسلوب أقرب للهواية منه للتخصص والارصان العلمي لمنهجية محددة . وبهذا نصل إلى السؤال : هل توصل ناقدوا الإستشراق إلى رسم الخطوط العريضة لمثل هذه المنهجية ؟ ونقصد هنا علمية واضحة وقادرة على اقناع الحياديين من مثقفي العالم.

في واقع الأمر ان اي مشروع من هذا النوع يصطدم بجملة فائقة التنظيم من المؤسسات والجمعيات وبصخرة هائلة من العقول العربية الأسيرة .. هذه العقول التي فشلت في تبني النكوص الديني او هي اكتشفت سذاجته كحيلة دفاعية فوجدت الحل بالنكران التام لهويتها تحت مسميات الحداثة والليبيرالية والإنسانية والعالمية ... الخ إن التنظيم التكاملي بين هؤلاء وبين المشاريع الاجنبية كان جديرا بوأد أية محاولة لقراءة عقلانية لواقع الذات العربية ولتراثها وللاوعيها . كما كان جديراً بإبراز أي مظهر من مظاهر الاسر العقلي مقصوداً كان أو عن غير قصد .

■ إن الفردية المميزة لنقد الإستشراق وعدم تأطير هذا النقد يؤديان إلى عدم تفرغ النقاد وتصديهم للنقد بأسلوب أقرب للهواية منه للتخصص والارصان العلمي لمنهجية محددة .

٥ - النقد الغربي للاستشراق ولمشاريعه .

تشكل كتابات نعوم شومسكي نموذجاً مثالياً لنقد المنطلقات الفكرية الغربية التي كانت أساس الأفكار المسبقة التي قامت عليها مشاريع الإستشراق

والتبشير وما انبثق عنها من مشاريع الوصاية على شعوب العالم الثالث عامة وعلى الشعب العربي خاصة .

وبالرغم من يهودية شومسكي وانتمائه إلى الدوائر الأكاديمية الأميركية تمكن هذا المفكر من تكوين فكر ناقد وشديد الحساسية إزاء اللاعدل . فهو بداية رفض الألسنية السلوكية (شومسكي متخصص أساسا بالألسنية) واستبدلها بالألسنية التوليدية ــ التحليلية . هذا الرفض والاستبدال التالي له يشكلان دعامة الموقف الفكري لهذا المفكر . فرفض السلوكية يعني بحد ذاته رفض النموذج الفكري الأميركي في حينه ، القائل بأن الدماغ هو صندوق أسود مغلق وعلينا تشكيل الشخص (وبالتالي الشعوب) من خلال التحكم بظروفه الحياتية وصولاً إلى دفعه للاتساق مع نسق القيم الأميركية . هذه النظرية كانت بمنزلة حصان طروادة الذي دخل من خلال الفكر الأميركي إلى عقول المثقفين واصحاب الإختصاصات الإنسانية (علم النفس والاجتماع والألسنية ... الخ .

لقد اكتشف شومسكي ان اللغات ، مثلها مثل الشعوب والكائنات الحية ، تختلف في بنيتها وفي فلسفتها مما يحول دون تطبيق السلوكية عليها . هذا الاكتشاف كان وراء مواقف شومسكي وملاحظاته لاتساع الهوة بين القول والفعل في صفوف المسؤولين والسياسيين الغربيين . بما يتكشف عن خيانة فاضحة للمبادئ الديمقراطية التي ينادون بها .

لقد كرس شومسكي هذه الآراء بكتابات جريئة هي : " في الحرب مع آسيا " و " الجبروت الأميركي والمستعمرون الجدد " و " السلام في الشرق الاوسط " و " نحو حرب باردة جديدة " و " قراصنة واباطرة " و " ثقافة الارهاب " و " تصنيع الإذعان " و " اوهام ضرورية " و " إعاقة الديمقراطية". ولقد احتوت هذه الكتب على إدانات صريحة موضوعية لتناقض الفكر والممارسة في السياسة الأميركية حيث تستخدم الولايات المتحدة تفوقها العسكري بلا رحمة من اجل حماية مصالحها واستدرار مغانم شتى.

وإذا كانت مواقف شومسكي مواقف سياسية مباشرة وراهنة فإننا نجد في المقابل نقدا منهجيا للدرسات الإستشراقية . ومن اهم هذه المواقف كتاب " النظر غير المتساوي " للمؤلف الفرنسي آلان لوبيشون . إن المنطق الفكري المعتمد في هذا الكتاب يقوم أساسا على مبدأ احترام تمايز الآخر . والإعتراف بهذا التمايز هو بحد ذاته ناجز بالآخر . بداية يعترف المؤلف اننا اصحاب نظر غير متساو . فالنظر لا يتساوى بين البشر لأنه اساساً نظر مختلف مادام صادراً

■ إن المنطق الفكري المعتمد في هذا الكتاب يقوم أساسا على مبدأ احترام تمايز الآخر . والإعتراف بهذا التمايز هو بحد ذاته ناجز بالآخر .

عن مرجعيات ثقافية مختلفة . لكن الفكر الغربي لا يقر مبدأ التمايز إذ يقول بوجود نظرة متساوية واحدة (هي نظرته بالطبع) وفي سبيل ذلك فهو يعمد إلى اختزال النظرات الأخرى حتى يرى فيها نظرته هو . ولتدعيم آرائه ينكص لوبيشون إلى حادثة مقتل هابيل على يد قابيل ، وذلك في إطار نظري يتشابه إلى حد بعيد مع تناول عالم النفس المجري سوندي لهذا الموضوع . لكنه يختلف مع سوندي من حيث استخراج دلالات هذه الحادثة . ففي حين يرى سوندي ان الحياة النفسية للشخص هي ميدان صراع بين الميول القابيلية والميول الهابيلية فان لوبيشون يرى أن الموت هو أصل المعرفة . إذ أن قابيل لم يتعرف حقاً على أخيه إلا بعد أن قتله.

وهكذا يستنتج لوبيشون أن الموت هو أول أشكال المعرفة . وهو ينطلق من هذا الاستنتاج إلى القول بأن الصلات القاسية بين الموت والمعرفة هي صلات لم تنعدم قط في تاريخ البشرية . وهو يجد في مبدأ التشريح نفسه ، وفي عمليته المادية ، واحدا من وجوه العلاقة بين الموت والمعرفة . ولكن ما هو التشريح برأيه ؟

التشريح هو وضع الإنسان قيد المراقبة والتفتيش والتفكيك في وضع تجميدي له . على ان تقوم مسافة بين المراقب الدارس وبين الآخر (موضوع التشريح) . بهذا التعريف يجد لوبيشون ان وضعية التشريح هذه هي الوضعية الاساسية التي قامت عليها الفلسفة العقلانية الوضعية (المتحدرة من فلسفة الانوار) لا سيما " علوم الإنسان " التي تفرعت عنها الانتروبولوجيا . فهذه العلوم لم تكن لتنشأ لو لم يتعرف الاوروبيون إلى الثقافات الاخرى ولو لم يعترفوا بوجودها . ثم يعمد المؤلف إلى التمييز بين فئتين من الجمود المؤسس : ١ـ جمود المراقب و ٢ـ جمود الموضوع : وهو يتجلى في علم الانتولوجيا . حيث يدرس الإنسان البدائي على انه جامد جمود التاريخ . كما يتجلى فيه جمود المراقب من خلال ابتعاده عن الاتصال بالموضوع.

هذا الجمود يكمن في اساس دعوة لوبيشوت إلى ضرورة اجراء مراجعة شاملة لكافة العلوم الإنسانية .وذلك وصولاً للدعوة إلى إقامة " علوم إنسانية متبادلة " إذ أن اقتصار هذه البحوث على أعمال غربيين ، في بيئات غربية عليهم ، يجعل منها مواضيع شك . وهنا يسجل المؤلف بعض القناعات التي سبق له تجسيدها بمشاركة " امبرتو إيكو " في تأسيس المعهد عبر الحضاري .

إن آفاق هذا الكتاب تلتصق بطابعه الانساني العام . إذ يؤكد على ان العلوم الإنسانية لاتقوم لا من خلال وجود الآخر واعترافنا بهذا الوجود . وهو قد جسد أساليب هذا الاعتراف على النحو الآتي :

■ التشريح هو وضع الإنسان قيد المراقبة والتفتيش والتفكيك في وضع تجميدي له . على ان تقوم مسافة بين المراقب الدارس وبين الآخر (موضوع التشريح) .

١ ـ أقام لوبيشون في العام ١٩٨٢ وحدة دراسية خاصة بـ " أتنولوجيا فرنسا " على أن تتألف هذه الوحدة من باحثين من العالم الثالث . وهو قد وضع بذلك حداً لاحتكار النظر الغربي على العالم (وهو احتكار يدوم منذ قرون) فماذا كانت النتيجة ؟ .

كانت رؤية باحثي العالم الثالث شبيهة بتعليقاتهم على المجتمع الفرنسي. وهي لم تكن متحفظة كما هي الحال تعليقات الباحثين الغربيين .

٢ ـ استقدم لوبيشون باحثين صينيين لدراسة الايطاليين فظهر جليا اختلاف النظرة وعدم تساويها .

٦ ـ نقد الإستشراق والمزاوجة الفكرية :

إن تداخل العلوم الإنسانية بعضها بالبعض الآخر واتحاد بعض فروعها يدفعنا للمقارنة بين الأتنولوجيا (وما احتوته من الدراسات الإستشراقية التي حددت موقفاً مسبقاً من العرب) وبين علم النفس . ان هذه المقارنة تظهر تطابقاً لافتاً بين ازماتها وخاصة لجهة عدم اعتراف الفروع الغربية بالآخر . بما يستتبع الاستنتاج بأن الفكر الإستشراقي لايزال مهيمنا على كافة فروع العلوم الإنسانية المعاصرة . بالرغم من نشوء عبر الحضارية في بعضها . ذلك ان عوائق عديدة تحول دون اعتراف الغرب بالآخر (مصالحه وتحقيق مغانمه ـ راجع شومسكي) . كما توجد عوائق أخرى مصدرها النمطية الغربية لمثقفينا. فصحيح ان هنالك باحثون غربيون على نمط شومسكي ولوبيشون ولكنهم عاجزون عن تغيير نظرة الجمهور للآخر . وتكفينا هنا صورة " العربي القبيح " في وسائل الإعلام الغربية . الأمر الذي يوقع مثقفينا في مجموعة من المآزق إذا هم حاولوا إبراز وضعيتهم كآخر . من هذه المآزق نذكر:

أ ـ الأسر العقلي : إن عقول بعض الباحثين العرب المتخرجين من الجامعات الأجنبية تبقى أسيرة النظرة الأجنبية بحيث يصعب عليها تخطي هذا الأسر.

ب ـ مشاعر الذنب : الناجمة عن صورة العربي القبيح والتي تهيمن على عقول بعض الباحثين وتضعهم في مأزق يجب الخلاص منه .

ج ـ نقص الخبرات : الذي يحول دون توجه الأكاديمي العربي نحو البحث العلمي المنظم . لأنه مدعو للممارسات العملية لسد هذا النقص . مع ما يرافق هذا النقص من عدم وجود الميزانيات والإمكانيات اللازمة للبحث العلمي .

■ إن تداخل العلوم الإنسانية بعضها بالبعض الآخر واتحاد بعض فروعها يدفعنا للمقارنة بين الاتنولوجيا .

هذه الأسباب هي مجرد عينات للمآزق التي تحول دون تمكين باحثينا من المزاوجة الفكرية بين وضعيتهم كآخر وبين استعداد مفكرين على طراز شومسكي ولوبيشون لدعم هذه الوضعية ومساعدتهم على ابرازها . حتى التزموا بحدود ترجمة فكر وكتب مثل هؤلاء المفكرين ولكن دون أن يجرأوا على مجرد تقليدهم . فمحاولة تقليد هؤلاء – بل مجرد ذكر افكارهم دون التنويه بمصدرها الغربي تواجه قمعاً متعدد الأصعدة تمارسه المؤسسات والجمعيات التي تخدم مبدأ اختزال الآخر وتقزيمه في عالمية الفكر الغربي المفروضة فرضا والتي تتواجد في مجتمعنا العربي تحت مسميات مختلفة وتستتر وراء اقنعة متنوعة .

من هنا القول بأن الإستشراق لم يعد مجرد تجميد الإنسان العربي في الزمان ودراسة تراثه بصورة تهتكية وهو محروم حق الدفاع عن النفس . بل ان الإستشراق فرض مواقفه المسبقة على الآخر وقزمه استعدادا لابتلاعه وتذويبه في مجموعة من المشاريع المتطورة التي تسخر كافة العلوم الإنسانية الحديثة لخدمتها .

إن مواجهة هذه المشاريه تنطلق من الخطوط العريضة التالية:

١ ـ إن لكل إنسان معاصر حوالي المليار سلف خلال ثلاثين جيلا . وهو محمل بالخصائص الوراثية لأسلافه . لذا فإنه من العبث محاولة تذويب هذا الإنسان في أنماط سلوكية وفكرية وفي خيارات قدرية تتعارض مع الخيارات المتاحة له .

فاختلاف خياراته القدرية يجعله " آخر " متكامل وغير قابل للذوبان .

٢ ـ إن اللغة العربية هي الشيفرة التي تنظم لا وعي الإنسان العربي او على الاقل فهي الوسيط المفصلي لاعرابه عن مكنونات لا وعيه . لذلك فانها متفوقة كغاية كي يعتمدها كلغة تعليم مهما كانت تهم القصور الموجهة لها . اما اللغات الاخرى فهي بالنسبة للانسان العربي مجرد أدوات للاتصال بالآخر وللاطلاع على ثقافته والاستفادة منها دون التخلي عن الخيارات العربية الخاصة .

٣ ـ ان الجمهور الغربي المتنور منفتح على الآخر لكنه لا يرى أمامه سوى الصورة القبيحة التي رسم الإستشراق ملامحها . من هنا التقدير الفائق للكتابات الاجنبية حول التراث العربي واحدثها كتب الاستاذ الدكتور سليم عمار حول ابن سينا وابن الجزار الصادرة بالفرنسية .

■ إن اللغة العربية هي الشيفرة التي تنظم لا وعي الإنسان العربي او على الاقل فهي الوسيط المفصلي لاعرابه عن مكنونات لا وعيه .

٤ ـ بما اننا عاجزون عن تغيير تراثنا الكروموزومي وعقلنا العربي (المبني من مجموعة الخيارات التي تتيحها لنا وراثتنا) وبما اننا مدركون لاهمية تراثنا الحضاري المدون فاننا لا نستطيع قبول أي مشروع واية حلول تتعارض مع هذه المعطيات .

لذا فان موقفنا من الحضارة المعاصرة هو الاقبال على كل ما هو انساني (مشترك بين البشر) فيها مع الاصرار على تعديل كل ما هو خاص بالآخر . لأننا بذلك نحترم خصوصية الآخر ونستوعب فرادته بما يساعدنا على اكتشاف ذاتنا وتكريسها كآخر .

٥ ـ علينا ايجاد معايير ثابتة لتقييم فعالية الحلول الجاهزة المقدمة لنا كأفراد وكمؤسسات واحيانا كدول . وبناء عليه علينا رفض كافة الحلول التي لا تراعي خصوصيتنا ولا تعترف بنا كآخر .

■ ان موقفنا من الحضارة المعاصرة هو الاقبال على كل ما هو انساني (مشترك بين البشر) فيها مع الاصرار على تعديل كل ما هو خاص بالآخر .